

المدارس القرآنية العصرية ومحاولات إصلاح التعليم الزيتوني من خارج الجامع الأعظم (1906-1956)

الجيلاني المحسن

جامعة منوبة تونس

تاريخ القبول: 2017/02/12

تاريخ الاستلام: 2016/12/05

الملخص:

مثّلت المدارس القرآنية العصرية تجربة تعليمية طريفة بتونس زمن الاستعمار، تمّ التفكير فيها بهدف توفير فرص تعليمية للأطفال التونسيين الذين لم يجدوا مكانا لهم في نهاية القرن التاسع عشر ثم تطوّرت حتى أصبحت منافسا جدّيا للتعليم العمومي. فرغم البداية المحتشمة سنة 1907 بمبادرة من ثلة من النخبة التونسية وتحديدًا من حركة الشباب التونسي بقيادة خير الله بن مصطفى والبشير صفر وبدعم من جمعية الأوقاف سرعان ما شهدت التجربة تطورا ملحوظا. فقد مثّلت المدرسة الأهلية سيدي بن عروس بتونس، مثلا تم الاقتداء به في أكثر من جهة البلاد، فظهرت تجارب مماثلة بكل من بنزرت وسوسة والمنستير والقيروان وقابس وجربة. ورغم أنّ كل أصناف التعليم بالأقاليم التونسية زمن الاستعمار الفرنسي هي من مشمولات إدارة التعليم العمومي قانونيا ونظريا، فإن هذه الأخيرة اكتفت بمراقبة تطور مشروع المدارس القرآنية العصرية بداية، وربما تفاجأت من النجاح الذي تحقّق، فعملت على ضربه أحيانا واحتوائه أخرى وذلك إلى حدود مرحلة الاستقلال الوطني. وحينها تمّ تأميم كل المدارس القرآنية العصرية ومثّلت بذلك نواة مهمة في البنية التحتية لمدرسة الاستقلال.

الكلمات الدالة:

المدارس القرآنية- تونس - التعليم الزيتوني - الجامع الأعظم

العنوان بالإنجليزية:

**Modern Quranic schools. And attempts to reform the Zaytouna education
outside the Grand Mosque**

Abstract:

The Modern Coranic Schools represented a funny experience in Tunisia during the time of colonization, they were thought of in order to provide educational opportunities for Tunisian children who did not find a place for themselves at the end of the nineteenth century, then they developed to become a serious competitor for public education. Despite its modest beginning in 1907 at the initiative of a group of Tunisian elite and specifically of the Tunisian youth movement led by Khairullah Bin Mustafaand and Bashir Sfar, and with the support of the Association of Religious Endowments, the experience soon witnessed a remarkable development. The civil school of Sidi Ben Arous in Tunis represented an example that was emulated in more than one part of the country, so similar experiences appeared in Bizerte, Sousse, Monastir, Kairouan, Gabes and Djerba. Although all varieties of education in Tunisia during the French colonization was one of the prerogatives of the public education administration legally and theoretically, the latter merely contended itself with monitoring the evolution of modern coranic schools project at the beginning, and it was perhaps surprised by the success that was achieved, and worked to attack it sometimes and contain it sometime other times until the phase of national independence. At that time, all modern coranic schools were nationalized and thus represented an important nucleus in the infrastructure to the School of Independence.

Key words:

Quranic schools - Tunisia - Zaytoun education - the Great Mosque

قامت إدارة التعليم العمومي باستبعاد غالبية التلاميذ التونسيين المسلمين ، من المدارس العموميّة لأسباب مختلفة بطرق ملتوية دون التصريح بذلك علنا. زد على ذلك أن حملة بعث المؤسسات التعليميّة الموجهة إلى التونسيين وغيرهن والتي بشر بها لوي ماشوال، أول مدير للتعليم العمومي سرعان ما انحسرت¹. ولمجابهة ذلك الوضع تحركت النخب التونسيّة على أكثر من صعيد بحثا عن سبل لتوفير أكبر فرص تدرس لأبناء الأهالي بمختلف الجهات. وتمّ التفكير سواء الرجوع إلى المؤسسات الموجودة أي الكتاب، وهو ما باركه بعض المغالبيين من الاستعمار، مع تطويرها أو إحداث مؤسسات

جديدة تراعي سنة التطور وتكون مقبولة في المخيال الاجتماعي ومن ثمة كانت فكرة المدارس القرآنية العصرية.

I- المدارس القرآنية العصرية: صعوبة البدايات وتطوير التجربة

إذا ما كانت إدارة التعليم العمومي بكل من توفر لها من إمكانيات قد بدت عاجزة عن توفير فرص تدرس للكثير من الأطفال التونسيين فكيف بمجموعة صغيرة من النخب التونسية بدأت تُخطط لإحداث تعليم عصري وبدل وبإمكانيات ذاتية ومحدودة.

1- ظروف إحداث المدارس القرآنية العصرية

تم التفكير في إحداث المدارس القرآنية العصرية داخل أوساط النخبة التونسية في نهاية القرن التاسع عشر وذلك لأسباب مختلفة منها ما تعلق بمواقف إدارة التعليم العمومي من تعليم التونسيين ومنها ما خصّ التونسيين ذاتهم في إطار الإجابة عن سؤال: أيّ تعليم يُناسب منظورهم؟ هل يُتمّ الانخراط في المنظومة التعليمية المُحدثة بكل ما لهم عليها من مآخذ؟ هل يُع التنسيق مع السلطة القائمة لإحداث نظام تعليمي خاص بأبنائهم؟ أو هل من الأفضل إصلاح المؤسسات القائمة وتطويرها وهي أساسا الكتايتب؟

من الثابت أن إدارة التعليم العمومي قد سعت خلال السنوات الأولى من تاريخ إحداثها، سنة 1883، إلى الترويج إلى مشروعها التعليمي بكلّ ما توفر لها من إمكانيات. وقد شهدت السنوات الأولى إحداث عدد من المدارس اللائكية سواء بالحاضرة أو بعدد من الجهات الداخلية مثلما ما تمّ بباجة أو بسوسة أو بتطاوين². وأمام موجة الرّفص التي جابهت بعض تلك التجارب لجأت الإدارة إلى سياسية "العصا والجزرة". فمن ناحية وقرت لعدد من المؤدبين النّافذين فضاءات داخل البنائيات المدرسيّة لاستعمالها ككتاتيب وأغدقت عليهم المنح والعطايا وربطت ذلك بقدر عدد التلاميذ الذين يُسجلون بالمدرسة بواسطتهم. ومن ناحية ثانية فرضت على رموز السلطة المحليّة من خلفوات وقياد جلب الأطفال وتسجيلهم بالمدارس المُحدثة³.

لكن ما يُثير الانتباه أنّ تلك السياسة سريعا ما وقع التراجع عنها فبدأت حملة إغلاق طالت العديد من المدارس وذلك لأسباب مختلفة منها تأثير القوى الاستعمارية المغالية الراضة لأيّ تعليم عصري بالنسبة إلى التونسيين وومنها ما تعلق بإدارة التعليم العمومي ذاتها ومدى جديتها في الاهتمام بتعليم التونسيين ومنها أيضا ضعف البنية التحتية وقلّة الإمكانيات والموارد المُخصصة لهذا القطاع لا سيما إذا علمنا أن عديد المدارس قد تمّ فتحها في فضاءات غير مناسبة للتدريس مثل المدرسة اللائكية بمكثر التي اتخذت من الآثار الموجودة بالمنطقة مقراً لها⁴.

ونتيجة لحملات الأغلاق التي طالت الكثير من المدارس فقد عدد من التونسيين الأمل في تعليم عصري لأبنائهم مما حدى بهم للبحث عن حلول أخرى، لا سيما وأنّ القناعات كانت في تزايد بخصوص قدرة التعليم التقليدي سواء بالكتاتيب أو بجوامع عن لعب دور المصعد الاجتماعي الذي يطمح إليه الكثير خاصة بتغيّر المهن وبتشغيل المؤهلات المطلوبة في مختلف الوظائف. وأمام محدودية فرص التمدد بما بقي من مدارس فرنكو-عربية وبالمدارس الفرنسية تسارعت وتيرة البحث من قبل رموز النخبة التونسية عن حلول أخرى تمكّن أعداد متزايدة من الأطفال التونسيين من اللحاق بالمدارس العصرية ومن ثمة تمّ إحداث المدارس القرآنية العصرية.

وقد حظيت هذه المدارس في البداية بدعم مزدوج، من قبل حزب المعمرين والعديد من الوطنيين وزعماء حركة الشباب التونسي على حد السواء. فبالنسبة إلى المعمرين تم تشجيع إنشاء الكتاتيب "العصرية" من قبل إدارة الحماية وحزب المعمرين للحدّ من إنشاء المدارس العمومية⁵ لما يمكن أن تمثله من خطر بنشرها لأفكار الحداثة. ووصل الأمر ببعض المتشددین إلى حد تمجيد الطرق التعليمية التقليدية رغم الإجماع على قصورها وضعف نتائجها. فقد كان يُقال مثلا "إن كل هذه السور القرآنية هي مصدر الفقه والألوهية وحضارة القوم وأنّ العرب الشبان الذين يحفظونها اليوم بصورة آلية كالباغوات سوف يدركون معانيها بعد عشر سنوات ويغتبطون بأنهم أكتنروها بفضل صرامة المؤدّب في سن تكون فيه الحافظة طيبة وقوية"⁶. وفنّد خير الله بن مصطفى هذه الأطروحات المنوهة بحشو الأدمغة ملاحظا إفلاس

إنتاجية الكتاب إذ تمكن 900 فقط من 20 ألف من الالتحاق بمؤسسة الزيتونة بينما عجز البقية عن ذلك.

وضمن إقرار التوجه بدعم الكتاتيب العصرية تم تأسيس المدرسة التأديبية أو العصفورية⁷ (مدرسة ترشيح المؤدبين) بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 8 نوفمبر 1894⁸ لتخريج المؤدبين على شاكلة المدرسة الترشيحية. وتنتدب هذه المدرسة كل سنة 5 تلامذة معلمين عن طريق مناظرة تحتوي على مادتي القرآن والنحو⁹. غير أن هذه المناظرة كانت ربما أحد أسباب فشل هذه المؤسسة، من خلال تقديم القدرة على الحفظ عند المترشحين على التحليل المنطقي¹⁰. لذلك ليس بغريب أن تعرف هذه المؤسسة فشلا ذريعا في مهمتها باعتراف الفرنسيين أنفسهم. فقد أكد ألبان روزي أمام مجلس النواب يوم 4 مارس 1904 أن أحسن تلميذ بالتأديبية كان عاجزا عن التعبير بالفرنسية ولو للاسترشاد عن طريقه كما أكد شارليتي هذه الحقيقة بقوله "أن لا أحد ينازع في إخفاق هذا التعليم"¹¹.

إن فشل مشروع المدرسة التأديبية وقصور الكتاتيب عن تلبية طموحات التونسيين قد جعل النخبة أكثر رفضا للمؤسسات التقليدية، فقد استغلّت فرصة انعقاد مؤتمر شمال إفريقيا بباريس من 6 إلى 10 أكتوبر 1908 لتوجه على لسان لسان خير الله بن مصطفى نقدا عنيفا إلى الكتاتيب وتطالب ببعث المدارس الفرنسية العربية التي تعتبر، في نظرهم، الحل الكفيل بحصول الشباب التونسي على تعليم صحيح مزدوج بالفرنسية والعربية¹².

لقد أدت محدودية نشر المدارس العصرية العمومية، وضعف مردودية الكتاتيب ببعض رموز النخبة المحلية إلى بعث تجربة تعليمية عصرية بخصوصيات محلية إذ بادر خير الله بن مصطفى بفتح كتاب عصري¹³ في ديسمبر 1906 ضم 200 تلميذ، غير أن التجربة لم تحظ بدعم معظم الشبان التونسيين¹⁴ وخاصة علي باش حانبه ومحمد نعمان بحجة أن الكتاتيب لا تفرز إلا تعليما منحطا وهو موقف عارضه رموز التعليم التقليدي مثل الشيخ الثعالبي وناصره بعض الغلاة من المعمرين. ورغم ذلك تمكن خيرالله بن مصطفى من تأمين النجاح لمشروعه، بتوفير الأسباب الضرورية، وخاصة التمويل الذي تكفلت إدارة الأوقاف بتوفير أكثره¹⁵.

2- تطوّر تجربة المدارس القرآنية العصرية

لم يتمّ تخصيص المدارس القرآنية العصرية بنص قانوني خاصة بها وبقيت قبل ذلك خاضعة لقانون التعليم الخاص وخاضعة إلى إشراف مدير التعليم العمومي بتونس الذي تمتّع بصلاحيات واسعة بمقتضى المرسوم الذي أصدره الباي في 6 مارس 1883¹⁶ فقد نصّ على كون "لوي ماشوال أستاذ لغة عربية مكلف بدارة كل الشؤون التي تهّمّ التعليم بتونس" أي مختلف المؤسسات التعليمية الموجودة مثل الكتابات والجوامع ومنها الزيتونة والمحدثّة أي المدارس بمختلف أصنافها.

وأمام عدم اعتراض إدارة التعليم العمومي على تجربة المدرسة الأهلية بسيدي بن عروس، تمّ إحداث مؤسسات أخرى فبلغ عدد المدارس القرآنية العصرية قبيل الحرب العالمية الأولى 10 مؤسسات مرخص¹⁷ لها أي بمعدّل أكثر سنوي يتجاوز الواحد بقليل، وهو عدد هام اعتبارا لمختلف الإحداثيات المدرسية في التعليم العمومي ونظرا للكلفة المرتفعة لإحداث المدارس الجديدة وكلّ ما تتطلبه من مرافق. فسرعان ما تعممت التجربة في مختلف أرجاء البلاد وخاصة بالحاضرة، حيث تأسست تباعا، المدرسة الخيرية سنة 1908. ومدرسة الثقافة والمدرسة العرفانية سنة 1913¹⁸، وتهاطلت المطالب¹⁹ على إدارة التعليم التي رغب أصحابها في تأسيس مدارس قرآنية عصرية غير أنّها العديد منها. بعد أن أثار نجاح بعضها حفيظة المتشددّين الفرنسيين²⁰ وهو ما تطلب تدخل الإدارة لتحقيق هدفين اثنين، مراقبة نشاطات هذه المدارس وتغطية الطلب المدرسي المتواصل والمتنامي بين الأهالي. هذا وقد تحولت عديد المدارس القرآنية العصرية في بداية الخمسينات إلى مدارس فرنكوعربية قبل أن يتمّ تأميمها نهائيا سنة 1956²¹.

زد على ذلك أنّ المدارس المحدثّة اشتغلت بإمكانياتها الذاتية باستثناء بعض الاعانات المشروطة من قبل جمعيات الأوقاف مثلا وانتظرت إلى حدود سنة 1925 لتحصل دعم إدارة التعليم العمومي. ففي منتصف العشرينات حصلت 14 مدرسة على دعم مادي بطلب من ممثلي التونسيين بالمجلس الكبير. ودخلت بذلك ضمن المدارس المنوحة التي تميزت عن المدارس الحرة التي بقيت خاضعة لقانون

1920 المنظم للتعليم الخاص. ومنذ العشرينات تدعمت مدارس الذكور بأخرى للإناث التي انتظرت بدورها الحرب العالمية الثانية حتى تنتثر بمختلف جهات البلاد. وقد انتقلت المدارس القرآنية عامة من مجرد مدارس مُشتتة لتعويض النقص الحاصل في التعليم العمومي إلى فسيفساء منتشرة في أغلب جهات البلاد فقد كانت في حدود 9 مؤسسات سنة 1920 لمجموع 1310 تلميذا لتصل إلى 14 مؤسسة سنة 1928 بمجموع 3189²². غير أن الطفرة الحقيقية كانت بعد الحرب العالمية الثانية حين مرّ عدد المدارس من 47 سنة 1945 إلى 118 سنة 1950 إلى 186 سنة 1955 وتجاوز عدد التلاميذ 30 ألف²³.

لقد انطلق مشروع المدارس القرآنية العصرية من مجرد رغبة في إحداث كتاب مُجدد يختلف عن نظيره التقليدي ويحاول الاقتراب من المدارس العصرية المُحدثة، لكن التجربة تطورا كما وكيفا وأصبحت مشروعا مكتمل المكونات استعملته السلط الفرنسية في تغطية العجز الناتج عن قلة نشر التعليم العموم ووجدت فيه دولة الاستقلال رصيذا مدرسياً ساهم في الحد من محدودية البنية المدرسية الوطنية.

II- الحياة المدرسية بالمدارس القرآنية العصرية

تكنت المدارس القرآنية العصرية وإمكانيات ذاتية من التواجد بفاعلية ضمن النسيج المدرسي، وتمكنت من التطور كما ونوعا، كما كانت تنظيماتها البيداغوجية ونتائجها تضاهي ما توفر بالتعليم العمومي بل تمكنت أحيانا من تجاوز ذلك.

1- بنية تحتية في تطوّر رغم المعوقات

قطعت المدارس القرآنية العصرية مع الشكل المتداول للكُتاب من حيث الاقتصار على قاعة وحيدة تُفرش حُصرا وتجمع كلّ الأطفال المرسمين حول مؤدبهم. فبناية المدرسة الأهلية بسيدي بن عروس بمدينة تَكُونت من خمس قاعات إضافة إلى بقية المرافق الصحية وغيرها²⁴. وعلى منوالها نسجت بقية المدارس. أمّا بالنسبة إلى الوحدات المدرسية المُضافة فإلى حدود الحرب ا.سنوياً فقد كان تطورها بطيئا إلى حدود الحرب العالمية الأولى، فلم تتجاوز الوحدتين بتونس وأخرى بسوسة²⁵.

أما بين الحربين فقد شهدت بعض الإضافات، فقد تمّ إحداث ثلاث مدارس قرآنية عصرية بمدينة تونس ما تمّ تأسيس مدرسة على الأقل بكل من سوسة والقيروان وقابس. غير أنّ الطفرة الحقيقية كانت بعد الحرب العالمية الثانية وذلك لأسباب مختلفة، منها ما تعلق بالجانب التشريعي بصور نصوص قانونية خاصة بهذا الصنف من المدارس كالأمر الصادر سنة 1944 أو السنة 1953 ومنها ما ارتبط بتنامي الوعي بأهمية التعليم العصري في الأوساط المحلية خاصة بعد النتائج الهامة التي حققتها العديد من المدارس في الشهادة الابتدائية مثل مدرسة المكنين التي شهدت خلال سنة 1953 مثلا نجاح 12 مترشح من مجموع 17 تقدموا لنيل الشهادة الابتدائية مقابل 30 من 48 مترشح من المدرسة الفرنكة-عربية بنفس المنطقة²⁶. ومن العوامل المساعدة أيضا المساعدات المادية التي حصلت عليها المدارس القرآنية التي وافقت على شروط إدارة التعليم وانخرطت ضمن صنف المؤسسات الدعومة. وفي نهاية الفترة الاستعمارية وتحديدا سنة 1955 ارتفع عدد المدارس القرآنية العصرية فوصل 11 مؤسسة بقباس و18 بالقيروان، وأعداد أقلّ ببقية جهات البلاد²⁷.

ولما كانت المدارس القرآنية العصرية بمبادرات فردية فإن العديد منها، وخاصة في السنوات الأولى، تمّ فتحها في محلات مسوغة لكن حالة أغلب البنائيات كانت مقبولة بالنسبة إلى إدارة التعليم العمومي. فالمدرسة الأهلية سيدي بن عروس تكونت من خمس قاعات وحالة البناية جيدة. أما مدرسة "الهداية" بجمّال فقد تمّ افتتاحها في محل صغير سنة 1924 ثمّ وقع سنة 1938 وقع اكتراء منزل كبير الحجم متكون من 4 غرف كبرى وقع تحويلها إلى قاعات إضافة إلى منزل صغير للسكنى دورة مياه كما كانت مجهزة ببئر²⁸. أما المدرسة القرآنية العصرية للفتيات الأمانة بساقية الزيت (صفاقس) وحسب شهادة مديرها فقد "أسست في على شكل بديع وقاعات فسيحة وساحة مزدانة بالأشجار"²⁹. وكان وضع البنية التحتية للكثير من المدارس القرآنية العصرية أفضل من نظيراتها بالتعليم العمومي، فالمدرسة اللاتينية بمكثّر (سليانة) وقع افتتاحها في الآثار المتواجدة بالمنطقة³⁰. أما مدرسة الفتيات بنهج زروان (تونس) فقد كانت بنايتها متداعية للسقوط وتالتت مطالب مديرتها لترميمها لكن دون جدوى³¹.

تم فتح أغلب المدارس القرآنية العصرية في فضاءات لائقة للتعليم، وهو ما يُحسب لإدارة التعليم التي كانت متشددة في منح التراخيص، خاصة بالنسبة إلى التونسيين، لكن تكاتف الأهلي وحرصهم على إنجاح المشروع الذي ساروا فيه مكن من ظهور أعداد كثيرة منهم وبجهات مختلفة. وإضافة إلى البناءات، عمل مديروا المدارس القرآنية العصرية على تمكين التلاميذ المرسمين بالمؤسسات التي يشرفون عليها من برامج دراسية متنوعة وثرية تراعي خاصيتي الانفتاح والأصالة.

2- التنظيمات البيداغوجية والتقييم والموارد البشرية

اعتمدت المدارس المحدثّة بتونس بعد انتصاب الاستعمار الفرنسي طرق بيداغوجية مختلفة عن الكتابات التي تعددت أوصافها في كتابات الفرنسيين ومنها وصف شارل أندري جوليان: "كان الكتاب الذي يؤمّه الأطفال من الخامسة إلى السادسة عشر من عمرهم طريفا في نوعه يثير الفضول بموقعه (على جزء من دار تعلق نهجا) وبالأطفال اللابسين صديرات صغيرة وردية اللون أو صفراء فاقعة والمرتين جبابا في لون الصدور وأخيرا المربي المتجهّم الوجهة أو المؤدّب وسلاحه الوحيد عصاه القاسية"³². فالمدسة الأهلية بسيدي بن عروس تولّت منذ إحداثها، تدريس القرآن وعلوم الدين الإسلامي واللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والهندسة والحساب ومبادئ اللغة الفرنسية³³. وبشكل تدريجي أصبح للمدارس القرآنية العصرية جداول أوقات واضحة المعالم لا سيما وأنّها أصبحت تحت الإشراف المباشر لمتفقد التعليم العمومي منذ سنة 1944³⁴. ويدرس كل فصل 30 ساعة أسبوعيا مثلما هو الأمر بالنسبة إلى المدارس الفرنكة-عربية وتوجد مواد باللغة العربية أخرى بالفرنسية أي اعتماد اللغتين كمواد دراسية وكأدوات تدريس. كم تقسيم المسار التعليمي إلى نف التوزيع الفرنسي من المستوى التحضيري إلى المستى العالي مثلما يُبين الجدول التالي:

التوزيع الأسبوعي للمواد والتوقيت بالمدارس القرآنية العصرية وفق التنظيم البيداغوجي

ل 15 أكتوبر 1953³⁵

المادة	المستوى المتوسطي (سنتين)		المستوى المتوسطي (سنتين)		المستوى المتوسطي (سنتين)		المادة
	عربية	فرنسية	عربية	فرنسية	عربية	فرنسية	
القرآن	3س		2س30		2س30		
تربية			0س30		0س30		
أخلاق	0س40		0س20		0س30		
رصيد لغوي	2س30				2س30		
القراءة	4س10		3س40		3س40		4س

رقم	نوع	س1	س2	س3	س4	س5	س6	س7
1	رسمة	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
2	تاريخ	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
3	حساب	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
4	اشغال يدوية	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
5	اشغال	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
6	اشغال	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
7	اشغال	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
8	اشغال	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
9	اشغال	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س
10	اشغال	1س	2س	3س	3س	3س	3س	3س

				30س0	30س0	25س0	50س0	إناشيء
1س		1س		1س			1س	رياضة
1س40		1س40		1س40		1س40		راحة
30س		30س		30س		30س		المجموع

يتشابه جدول الأوقات الخاص بالمدارس القرآنية العصرية بالخاص بالمدارس الفرنكة-عربية سواء بالنسبة إلى المواد أو التوقيت. والاختلافات محدودة جداً. فمادة القراءة يُخصص لها عادة بين ساعتين ونصف وأربع ساعات سواء بالنسبة إلى اللغة العربية أو الفرنسية. وكذلك الحساب الذي يتم في ثلاث ساعات كمعدل أسبوعي وهو باللغة العربية بالمستويات الدنيا وبالفرنسية في المستويات الأعلى. التوزيع الأسبوعي للمواد والتوقيت بالمدارس الفرنكو-عربية³⁶

الواد	المستوى	المستوى الأساسي	المستوى المتوسط والمستوى العالي
-------	---------	-----------------	---------------------------------

عربية	عربية	فرنسية	عربية	فرنسية	عربية	عربية
	2س		2س		2س	التقنيات والأجهزة
		4س		4س40دق		تعليم محوسب
4س	2س30	4س	3س30	4س	4س	التقنيات
		1س	1س	2س	2س	خط
5س	4س50دق	3س	3س20دق	1س	2س 30دق	لغة
0س30دق		0س30دق	0س30دق	0س30دق	1س	أشياء

4س			3س		2س 40دق	حساب
	1س30دق		0س50دق			انشغال يدوية
1س30دق		0س40دق		1س		تاريخ وجغرافيا
1س		1س		1س		رسم، انشغال يدوية
1س	1س30دق					رياضة
		1س40دق		1س40دق	1س 40	راحة
		30س		30س	30س	المجموع

ولما كان الهدف المشترك لأغلب رواد المدارس الابتدائية على اختلافها الحصول على الشهادة الابتدائية، عملت المدارس القرآنية العصرية على توفير تكوين صلب في الفرنسية والرياضيات لاسيما وأن اللغة العربية ظلت اختيارية إلى حدود سنة 1946، قد تمكنت الكثير من المدارس من تحقيق نتائج مهمة مثلما حصل سنة 1953، ففي المدرسة العرفانية بتونس ترشح 49 نجح منهم 14، أما مدرسة الرشاد بباجة فقد سجلت 40 مترشحا نجح منهم 10، واكتفت المدرسة الفرنكو-عربية المقابلة لها بنفس المدينة بـ 22 مترشح نجح منهم 5 فقط، أما القرآنية بالقلعة الصغيرة فقد قدمت 16 مترشح نجح نصفهم أما الفرنكو-عربية في الجوار فترشح منها 28 تمكن 8 منهم فقط من الحصول على الشهادة الابتدائية³⁷

بالنسبة إلى الموارد البشرية وخاصة المعلمين، شهدت أوضاعهم عدة تغييرات، من ذلك أن أجورهم أصبحت تُصرف من ميزانية إدارة التعليم العمومي، وحصل التغيير الحقيقي في هذا الاتجاه خلال السنة الدراسية 1952-1953³⁸ وقد وصلت أعدادهم في نهاية الفترة الاستعمارية إلى 974 منهم 489 من الحاصلين على شهادتي التحصيل أو التطوع بالجامع الأعظم والبقية موزعين بين أصحاب البرقي العربي 100 والشهادة الابتدائية فقط 202 إضافة إلى اختصاصات أخرى³⁹. قد تمكن معلمو المدارس القرآنية العصرية من تنظيم صفوفهم فظهرت نقابة خاصة بهم، ومنذ ذلك التاريخ أصبح بعضهم يتمتع بأجر من إدارة التعليم للحدّ من تأثير غلاء الأسعار⁴⁰. ومطلع الأربعينات شهدت أوضاعهم الكثير من التغييرات حتى أصبحوا يقترّبون من نظرائهم بالمدارس العمومية منها ضرورة حصولهم على شهادة الكفاءة الصناعية⁴¹.

III- المحور الثالث: تفاعل المدارس القرآنية العصرية مع محيطها

نظرياً كانت إدارة التعليم العمومي الهيكل المطالب بتوفير التعليم بالنسبة إلى الأطفال التونسيين حسب ما نص عليه الهدف من تأسيس إدارة التعليم العمومي غير أنّ ذلك بقي في مستويات التنظير بل أنّ علاقتها ببعض الأصناف من المدارس شهدت الكثير من السجال.

1- المدارس القرآنية العصرية وإدارة التعليم العمومي: التباعد والاحتواء

كان القصور جليًا وفي تطوّر مستمر بالنسبة إلى عمليّة قبول التلاميذ التونسيين بالمدارس العموميّة، الفرنسيّة⁴² أو الفرنكو-عربيّة⁴³ على حدّ سواء. فكثيرا ما يتم رفض عديد مطالب الترسيم الخاصة بالأطفال بتعلّة عدم وجود أماكن شاغرة. ولم تتساو حظوظ مختلف التلاميذ في سنوات الدراسة وفي الالتحاق بالمدارس فالفرنسيون خاصة والأوروبيون عامة تمتعوا بمزايا قانون 28 مارس 1882 الذي ينص على إجبارية تعليم الاطفال من الجنسين من سن 6 إلى 13 سنة، وتدعم هذا القانون بمذكرة وجهتها إدارة التعليم العمومي تنبه إلى ضرورة قبول كل تلميذ فرنسي يتقدم إلى التسجيل مهما اكتظت المدرسة⁴⁴. غير أنّ يختلف جوهرها بالنسبة إلى الأطفال التونسيين، وقد أثارت تلك الوضعيّة حفيظة أعداد متزايدة من التونسيين وخاصة من رموز النخبة الناشئة المعروفة اصطلاحا بحركة الشباب التونسي. وإزاء تلك الوضعيّة تحرّرت بعض الأطراف صلب الحكومة التونسية وإدارة التعليم العمومي للقيام ببعض الإصلاحات علّها تكون مسكّنات، ولو ظرفيّة، من خلال العمل على تعصير الكتابات وذلك منذ نهاية القرن التاسع عشر.

أمام محدوديّة عدد المدارس العموميّة والفرنكو-عربيّة بصفة خاصة تدعّم المشهد التعليمي المدرسي بمؤسّسات التعليم الأهلي العصري. وهي تقترب كثيرا في برامجها وهيكلتها من المدارس الفرنكو-عربيّة. بل أن العديد منها أصبح لاحقا من ضمن ذلك الصنف. ومن بينها، على سبيل المثال، مدرسة بسيدي داود التي تأسست سنة 1949 بصفة مدرسة قرآنية ثمّ أصبحت سنة 1953 مدرسة فرنكو عربيّة⁴⁵. ولئن لم تكن المدارس القرآنية العصرية تحت الإشراف المباشر لإدارة التعليم العمومي فإن تحت مراقبة متفقد التعليم العربي الذين يعودون إليها بالنظر. ورغم ذلك فإن العلاقة بينهما تراوحت بين المهادنة والتقارب والتباعد. فعند بداية التجربة لم تُبد إدارة التعليم العمومي موقفا واضحا إزاء هذه المدارس ولا يُعلم إن كان ذلك قناعة منها بأهمية الدور الذي قد تلعبه تلك المؤسّسات كرافد للتعليم العموميّأم تجنّبا للاصطدام مجدّدا مع التونسيين في موضوع شديد الحساسية خاصة وأنّ انطلاق التجربة تزامن مع حدثين مهمين: تمثّل الأوّل في تراجع إدارة التعليم العمومي عن الكثير عن وعودها في نشر

التعليم وإقرار التعليم المهني بالنسبة إلى التونسيين فعليا من خلال تعيين "شارلتي" على رأس إدارة التعليم العمومي.

وتزامنا مع المنح التشجيعية التي تم إقرارها لفائدة المدارس القرآنية العصرية منذ منتصف العشرينات تولت إدارة التعليم تشجيع ذلك الصنف من المؤسسات اعتبارا لما تقدمه من خدمات في مجال التعليم بالنسبة إلى الأطفال التونسيين وذلك حسب شهادة "روجي ليتورنو" RogerLe Tourneau مدير التعليم العمومي⁴⁶. غير أن ذلك الموقف لم يدم طويلا ففي نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات تراجع اهتمام إدارة التعليم العمومي بالمدارس القرآنية العصرية وشاب العلاقة الكثير من الجمود الذي وصل أحيانا حد التصادم. ففي مطلع السنة الدراسية 1937 - 1938 كان هناك 16 مطلب معلق لفتح مدارس قرآنية عصرية وهو ما كان محل انتقاد سواء من قبل أصحاب المطالب أو من الصحافة الوطنية⁴⁷.

وقد مثلت المدارس القرآنية أحيانا مصدر إزعاج لبعض مديري المدارس الفرنكو-عربية بسبب تفضيل الكثير من تلاميذها المغادرة نحو المدارس القرآنية العصرية وقد وصل صدى ذلك إلى إدارة التعليم العمومي. ومن بين تلك المناكفات يمكن الإشارة إلى ما حدث بمدينة باجة بين المدرستين المجاورتين الأولى فرنكو-عربية (شارع بورقية حاليا) والثانية الرّشاد وهي قرآنية عصرية. أما بمدينة صفاقس، مثلا، فقد تراجع تلاميذ المدارس الفرنكو-عربية من 631 خلال السنة الدراسية إلى 584 خلال السنة الموالية⁴⁸.

وبشكل تدريجي تبين أنّ الهدف الرئيسي لإدارة التعليم العمومي كان وضع يدها على تلك المؤسسات الخاصة غير ذلك تمّ بشكل تدريجي ورغم ذلك فقد أثارت تلك التوجهات حفيظة الكثير من أصحاب المبادرات الخاصة. وتجدد الإشارة إلى أنّ نقابة معلمي المدارس القرآنية العصرية، التي تأسست سنة 1936 كان لها مساهمة في ذلك من خلال مطالبتها المتكررة بجعل إدارة التعليم العمومي هي الهيكل الذي يتولى صرف أجور المدرسين وحذف ذلك الدور من مديري وأصحاب المؤسسات المعنية. وقد تمّ تجسيم ذلك التوجه لعدد من المدارس القرآنية العصرية منذ سنة 1942⁴⁹. ومنذ صدور الأمر العليّ

المنظّم للمدارس القرآنية العصرية المؤرّخ في 19 أوت 1944، أصبحت هذه المدارس تقريبا تحت إشراف إدارة التعليم العمومي، إضافة الترخيصالمسبق والتفقد الذي أمّنه متفقّدو التعليم الابتدائي تدخلت الإدارة في التنظيمات البيداغوجية والتقييم وانتداب المعلمين وتأجيرهم وترقيتهم⁵⁰.

2- المدارس القرآنية العصرية والجامع الأعظم

عادة ما يتمّ قبول المترشحين بجامع الزيتون من بين المتميزين من رواد الكتاتيب لإكمال عملية التكوين لفترة الكتاب عادة ما تكون مخصصة لحفظ القرآن عن ظهر قلب لكن دون تفسير. أما بالجامع الأعظم فيتلقى الطالب دروس في اللغة العربية وعلومها إضافة إلى تفسير القرآن والحديث وغيرها من العلوم الشرعية⁵¹. هل سيتواصل العمل بنفس القاعدة مع التغييرات التي تمتّ وخاصة إحداث المدارس القرآنية العصرية؟

للإشارة فقط أنّ مشروع إصلاح التعليم الزيتوني الذي تقدّم به ماشوال نصّ على تخصص الجامع في التعليم العالي مع فتح مدارس جديدة للمستويين الابتدائي والثانوي إضافة إلى إصلاحات أخرى اعتبرت الحكومة التونسية ذاتها ضروية للنهوض بالمؤسسة "حتّى تكون أكثر نجاعة، حسب الوزير الأكبر، لأنّ تدريس العلوم الدينية القانونية وكذلك اللغة والآداب العربية في الجامع الأعظم لا تعطي في الحقيقة الرغبة في متابعتها وهل أنا في حاجة لأقول لكم إلى أيّ مدى معرفة العلوم الصحيحة ضرورية في العمل بالإدارات وكذلك في المهنة الحرة"⁵² غير أن ذلك لم يتم إلى حدود مطلع الخمسينات على الأقل حين كانت الصورة مكتملة: من التعليم الابتدائي الذي توفّر بالمدارس القرآنية العصرية إلى التعليم الثانوي الذي أمّنته الشعب العصرية الزيتونية على أن يتمّ تنويع المسار بالجامع الأعظم.

وإذا لم تكن المدارس القرآنية، ظاهرياً، على الأقل، مرتبطة بجامع الزيتونة، فإن أكثر من إشارة تؤكّد ذلك، ومن ذلك الأزمة الحادة التي اندلعت سنة 1946 بين عدد من المعلمين ومديري المدارس التي يشتغلون بها. فأسباب متعددة عملت إدارة التعليم العمومي على احتواء المدارس القرآنية العصرية سواء بالترغيب من خلال المنح أو العطايا أو الترهيب من خلال الشروط والتعسف والتشدد في

التراخيص. ولعل من أسباب ذلك الخوف من التحاقها بالجامع الأعظم وتكوين نظام تعليمي تونسي بمختلف مكوناته. ولعل ما يؤكد ذلك التوجس الحوار الذي دار بين مدير مدرسة الثقافة القرآنية وبعض معلمي المدرسة في موضوع انخراط المؤسسة ضمن المدارس الممنوحة لما لذلك من منافع مادية بالنسبة إليهم غير الرد كان صارما من محمد قريع ، مؤكدا أن "مصير المدرسة هو إلحاقها بجامع الزيتونة"⁵³.

وقد بينت الحادثة كون ثلاث مدارس كبيرة بمدينة تونس وهي مدرسة الثقافة القرآنية والمدرسة القرآنية الإسلامية الحرّة ومدرسة العلوم القرآنية الحرّة، قد خير جميعها البقاء ضمن المدارس الحرّة رغم أن ذلك يحرمها من إعانات هامة ولكنها أيضا مستقلة عن إدارة التعليم العمومي وبالتالي الالتحاق بالجامع الأعظم متى تمّ إرساء النظام الزيتوني الشامل لتتكون بذلك حلقة مهمة في إصلاحه. ومما يؤكد العلاقة المميزة بين الجامع الأعظم والمدارس القرآنية العصرية، أهميّة عدد المتحصّلين على شهادتي التطويع والتحصيل من بين المدرسين فقد أعدداهم سنة 1956 أكثر من نصف العدد الجملي للمعلمين وتحديدا 489 من مجموع 974 معلما. فالمدارس القرآنية العصرية تقوم بإرسال الكثير من تلاميذها إلى جامع الزيتونة وتوفّر لعدد منهم لاحقا فرصا تشغيلية.

تُعتبر المدارس القرآنية العصرية المحدثّة بتونس سنوات 1906 و1956 تجربة فريدة وطريفة. فقد تمّ إحداثها وسط تباين بين مختلف المتدخلّة في موضوع التعليم حول جدواها وإمكانية إثراء المشهد التعليمي. غير أنّ نجاح تجربة المدرسة الأهلية بسيدي بن عروس بحماسة بعض رموز حركة الشباب التونسي ودعم جمعيّة الأوقاف قد فاجأ الجميع بما في ذلك إدارة التعليم العمومي التي تعاملت بنوع من الحذر من المدارس القرآنية العصرية، ثم حاولت احتواء المشروع وقامت بتوفير دعم مهم بالنسبة إلى الكثير من المدارس، وتطورت تلك المدارس حتى اقتربت من المدارس الفرنكو-عربية ثمّ كانت، بما تميّزت به من ازدواجيّة الأنموذج الذي مثّل مدرسة الاستقلال.

الهوامش:

¹. بدأت حملة إغلاق المدارس الفرنكو-عربية سنوات قليلة بعد إحداثها وشهدت ذروتها سنة 1897. أنظر :

Zaouch, Abdejlil. – l'enseignement arabe en Tunisie. – Parsi : éd. Sté. Géographies maritimes et coloniales, 1932. – p 30.

² . تمّ افتتاح المدرسة اللائكية بباجة سنة 1886. أنظر:

المدرسة اللائكية بباجة، السجل التاريخي عدد 1، افتتاحية السجل التاريخي.

³ . نفس المصدر السابق: السنة الدراسية 1896-1897.

⁴ . المدرسة اللائكية بمكثّر: السجل التاريخي عدد 1، افتتاحية السجل التاريخي.

⁵ . جوليان (شارل أندري): المعمرون الفرنسون وحركة الشباب التونسي، تونس الشركة التونسية للتوزيع، 1970

ص 67.

⁶ . "مؤتمر شمال افريقيا" المنعقد بباريس من 6 إلى 10 أكتوبر 1908: مداخلة خير الله بن مصطفى حول التعليم

التقليدي، ص 567. ومن بين التقارير المقدّمة تشير إلى التقارير التي قدمها النواب التونسيون من بينهم محمد الأصرم

وخير الله بن مصطفى والصادق الزمرلي والبشير صفر ومحمد بالخوجة وعبد الجليل الزاوش.

⁷ . سمّيت هذه المدرسة بالعصفورية نسبة إلى المقر، حيث أنها بُعثت بمقر مدرسة النحوي الأندلسي ابن عصفور (ق 8

هـ/14م) التي تحدّد جامع الزيتونة من الجنوب. كما سمّيت بالتأديبية بالنظر إلى مهمتها في تكوين المؤدبين، وتحولت قبل

حذفها سنة 1908 إلى مقر مدرسة بئر الحجار (وهي آخر مدرسة أسسها علي باشا باي وتوجد بـ 40 نهج الباشا). انظر

:

D.I.P : B.O.I.P, N° 59, fevrier 1895.

Idem, N° 23, Octobre 1908.

⁸ . **Idem**, N° 59, fevrier 1895.

⁹ . جوليان . المرجع السابق. – ص 69.

¹⁰ . نفسه. – ص 70.

¹¹ . نفسه.

¹² . "مؤتمر شمال افريقيا": المرجع السابق.

¹³ . أسس خيرالله بن مصطفى كتابها عصريا أو مدرسة قرآنية عصرية بمبادرة فردية، ولئن وجد في بداية الأمر تشجيعا إلا

أن ذلك سرعان ما توقف وعرفت المؤسسة عديد الصعوبات. لمزيد التعرف على هذه المؤسسة يمكن العودة إلى :

اوت. : س E، ص 271، ملف 1/8، وثائق 53-116. وبقية وثائق متفرقة بالملف المذكور.

¹⁴ . جمعيتة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا. – النشرة الرسمية 1929-1930، ص 5.

¹⁵ يقع المبنى الذي ظم المدرسة في نهج سيدي بن عروس عدد 58 لكنه على وجه الكراء (3450 فرنك معلوم الكراء سنويا في نهاية العشرينات). وتوفرت البناية على قاعات في وضع جيد كما كانت مجهزة بطاولات للتلاميذ بدل الحصر، أي أنها تقريبا قد راعت الشروط الدنيا لفتح المدارس "العصرية". غير أن المدرسة سرعان ما عرفت عديد الصعوبات المادية، فميزانيتها التي اعتمدت أساسا على دعم إدارة الأوقاف عرفت تدهورا واضحا بالتزامن مع تأزم وضع إدارة الأوقاف.

¹⁶ العياشي (مختار) : الزيتون والزيتونيين في تاريخ تونس المعاصر (1883-1958)، تونس، مركز النشر الجامعي وجامعة الزيتونة، 2003، ص 29.

Ayachi: Ecoles¹⁷.... p 297

¹⁸ .ا.وت: س E. ص 260، م 2/13- تقرير الشيخ عبد العزيز بن شعبان حول المدارس القرآنية.

¹⁹ المصدر السابق، الملف 8/1، وثائق عدد 99-109-85-87-86، إدارة الشؤون الأهلية : تحريات عن اشخاص تقدموا بمطالب فتح مدارس قرآنية عصرية.

²⁰ .ا.وت: س E، ص 260، م 3/8، وثائق عدد 41-63 - مجموعة وثائق تبين المشاكل التي تعرّض لها عثمان القيطوني صاحب المدرسة القرآنية العصرية من السلط مباشرة أو بإيعاز منها. والتي أكتملت فصولها بمنعه من ممارسة أي نشاط تعليمي. وفي نفس السياق انظر أيضا :

.ا.وت: س E، ص 271، م 8/3، وع 6. - بلاغ من الكتابة العامة للحكومة التونسية قاضي بإيقاف عثمان

القيطوني عن أي نشاط في ميدان التعليم بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 28 جوان 1938.

²¹ الرائد الرسمي التونسي : أمر تأميم المدارس الفرنكو-عربية، 22 فيفري 1956.

²² Ayachi: Ecoles..., p 313.

²³ Idem.

²⁴ Ben Moustpha (Khairallah): L'Enseignement primaire des indigènes en Tunisie. In Congrès de L'Afrique du Nord tenu à paris du 6 au 10 octobre 1908, Tunis, imp. Rapide, 1910, pp 29-41.

²⁵ Ayachi: Ecoles..., p 311.

²⁶ Idem, p 317.

²⁷ Idem,

²⁸ . المدرسة القرآنية العصرية الهلال بجمال: السجل التاريخي عدد 1، افتتاحية السجل التاريخي.

- ²⁹ . المدرسة القرآنية العصرية الأمانة بساقية الدائر بصفاقس: السجل التاريخي عدد1، افتتاحية السجل التاريخي.
- ³⁰ . المدرسة اللاتينية بكثر: السجل التاريخي عدد1، افتتاحية السجل التاريخي.
- ³¹ . مدرسة الفتيات المسلمات بنهج زروان (تونس): السجل التاريخي عدد1، السنوات الدراسية 1927-1928، 1929-1928، 1944-1945.
- ³² . نفسه، ص57.
- ³³ . أ.وت : س E، ص 260، م 13، و 46، تقرير عبد العزيز شعبان حول المدارس القرآنية العصرية.
- ³⁴ **Aspects actuels de L'enseignement en Tunisie, p 8.**
- ³⁵ **Aspects...Op.Cit, p 15.**
- ³⁶ **Aspects...Op.Cit, p 14.**
- ³⁷ Ayachi: Ecoles..., pp 317-318.
- ³⁸ **Aspects, p 8.**
- ³⁹ Ayachi: Ecoles..., p 316.
- ⁴⁰ **La Tunisie Française : le 14 février 1945, Les Ecole Coraniques, Institution Tunisienne,**
- ⁴¹ . أ.وت : س E، ص 260، م 13، و 9، مشروع القانون الأساسي الخاص بالمدارس القرآنية العصرية.
- ⁴² . شمل العجز عن قبول التلاميذ الجدد، من بين التونسيين خاصة، مختلف المدارس وحتى الفرنسية منها. انظر : المدرسة الفرنسية المختلطة بالسعيدة. - السجل التاريخي عدد 1. - 1921-1950. - السنة الدراسية 1932-1933. - في بداية السنة الدراسية 1932-1933 لم يتم قبول 23 تلميذ جديد بسبب عدم وجود أماكن شاغرة.
- ⁴³ . مدرسة الفتيات المسلمات (الفرنكو - عربية للفتيات بداية من 1945/1946) نهج زروان بتونس: السجل التاريخي عدد1، تشير مديرة المدرسة إلى أنه مطلع السنة الدراسية في 10 أكتوبر 1938 لم يتم قبول طلبات تسجيل تلميذات جديدات بسبب محدودية طاقة استيعاب المدرسة. وتكررت نفس العملية في مفتتح السنة الدراسية 1940-1941 : "رغبات كثيرة في التسجيل لم يقبل منها إلا القليل.
- ⁴⁴ . م.ا.ت.ج. و: أرشيف الكيدورسي، ب 246، ص 312. م 1، و 104.
- ⁴⁵ **D.I.P : B.O.I.P, N° 14, 1954, Décret beylical fixant le statut des Ecoles Coraniques Modernes daté du 15/09/1953.**
- D.I.P : B.O.I.P, N° 14, 1954. - Circulaire du Directeur de l'enseignement publique relative à la mutation et à l'état du personnel des écoles coraniques modernes daté du 12/01/1954.**
- ⁴⁶ **Le Tourneau (Roger) : Rapport sur les Ecoles Coraniques Modernes en Tunisie,** Centre des Hautes Etudes sur l'Administration Musulmane, N° 225, p 33.

⁴⁷ Ayachi : Ecoles..., Op.Cit, p 298.

⁴⁸ Ayachi : Ecoles..., Op.Cit, p 301.

⁴⁹ Idem, p 299.

⁵⁰ الأرشيف الوطني التونسي : س E

⁵¹ أ.وت: س E، ص 260، ملف 13، و 46: تقرير عد العزيز شعبان حول المدارس القرآنية العصرية مُوجّه إلى القسم التونسي بالوزارة الكبرى.

⁵² العياشي : الزيتونة...، مرجع سابق، ص 37.

⁵³ أ.وت: س E، ص 260، ملف 13، و 47، مراسلة تظلم من مديري المدارس القرآنية الحرّة بتونس العاصمة إلى السيد الطيبّ بالخيرية رئيس القسم التونسي بالوزارة الكبرى.